**ابن القيم الجوزية يشرح نعمة الصلاة**

**من كتاب شفاء العليل**

**ويكفى العاقل البصير الحى القلب فكرة فى فرع واحد من فروع الامر والنهى وهو الصلاة وما اشتملت عليه من الحكم الباهرة والمصالح الباطنة والظاهرة والمنافع المتصلة بالقلب والروح والبدن والقوى التى لو اجتمع حكماء العالم قاطبة واستفرغوا قواهم وأذهانهم لما أحاطوا بتفاصيل حكمها وأسرارها وغاياتها المحمودة بل انقطعوا كلهم دون أسرار الفاتحة وما فيها من المعارف الإلهية والحكم الربانية والعلوم النافعة والتوجيد التام والثناء على الله بأصول أسمائه وصفاته وذكر أقسام الخليقة باعتبار غاياتهم ووسائلهم وما فى مقدماتها وشروطها من الحكم العجيبة من تطهير الاعضاء والثياب والمكان وأخذ الزينة واستقبال بيته الذى جعله إماما للناس وتفريغ القلب لله واخلاص النية وافتتاحها بكلمة جامعة لمعانى العبودية دالة على اصول الثناء وفروعه مخرجة من القلب الالتفات الى ماسواء والاقبال على غيره فيقدم بقلبه الوقوف بين يدى عظيم جليل اكبر من كل شىء واجل من كل شىء بلا سبب فى كبريائه السماوات وما أظلت والارض وما أقلت والعوالم كلها عنت له الوجوه وخضعت له الرقاب وذلت له الجبابرة قاهر فوق عباده ناظر غليهم عالم بما تكن صدورهم يسمع كلامهم ويرى مكانهم لا يخفى عليه خافية من امرهم ثم اخذ فى تسبيحه وحمده وذكره تبارك اسمه وتعالى جده وتفرده بالإلهية ثم اخذ الثناء عليه بأفضل ما يثنى عليه به من حمده وذكر ربوبيته للعالم وإحسانه اليهم ورحمته بهم وتمجيده بالملك الاعظم فى اليوم الذى لا يكون فيه ملك سواء حتى يجمع الاولين والاخرين فى صعيد واحد ويدينهم بأعمالهم ثم إفراده بنوعى التوحيد توحيد ربوبيته استعانة به وتوحيد إلهيته عبودية له ثم سؤاله افضل مسئول واجل مطلوب على الاطلاق وهو هداية الصراط المستقيم الذى نصبه لانبيائه ورسله واتباعهم وجعله صراطا موصلا لمن سلكه اليه والى جنته وانه صراط من اختصهم بنعمته بأن عرفهم الحق وجعلهم متبغين له دون صراط أمة الغضب الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه وأهل الضلال الذين ضلو عن معرفته واتباعه فتضمنت تعريف الرب والطريق الموصل اليه والغاية بعد الوصول وتضمنت الثناء والدعاء وأشرف الغايات وهى العبودية واقرب الوسائل اليبها وهى الاستعانة مقدما فيها ( الغاية ) على الوسيلة والمعبود والمستعان على الفعل إيذانا لاختصاصه وأن ذلك لا يصلح إلا له سبحانه وتضمنت ذكر الإلهية والربوبية والرحمة فيثنى عليه ويعبد بإلهيته ويخلق ويرزق ويميت ويحيى ويدبر الملك ويضل من يستحق الإضلال ويغضب على من يستحق الغضب بربوبيته وحكمته وينعم ويرحم ويجود ويعفو ويغفر ويهدى ويتوب برحمته**

**فلله كم فى هذه السورة من انواع المعارف والتةحيد وحقائق الايمان ثم يأخذ بعد ذلك فى تلاوة ربيع القلوب وشفاء الصدور ونور البصائر وحياة الارواح وهو كلام رب العالمين فيحل به فى ما شاء من روضات مونقات وحدائق معجبات زاهية ازهارها مونقة ثمارها قد ذلك قصوفها تذليلا وسهلت لمتناولها تسهيلا فهو يجتنى من تلك الثمار خيرا يؤمر به وشرا ينهى عنه وحكمة وموعظة وتبصرة وتذكرة وعبرة وتقريرا لحق ودحضا لباطل وإزالة لشبهة وجوابا عن مسئلة وإيضاحا لمشكل وترغيبا فى اسباب فلاح وسعادة وتحذيرا من اسباب خسران وشقاوة ودعوة الى هدى وردا عن ردىء فتنزل على القلوب نزول الغيث على الارض التى لا حياة لها بدونه ويحل منها محل الارواح من أبدانها فأى نعيم وقرة عين ولذة قلب وابتهاج وسرور لا يحصل له فى هذه المناجاة والرب تعالى يسمع لكلامه جاريا على لسان عبده ويقول : حمدنى عبدى أثنى على عبدى ومجدنى عبدى ثم يعود الى تكبير ربه عز وجل فيجد ربه عهد التذكرة كونه اكبر من كل شىء بحق عبوديته وما ينبغى ان يعامل به ثم يرجع حاثيا له ظهره خضوعا لعظمته وتذللا لعزته واستكانة لجبروته مسبحا له بذكر اسمه العظيم فنزه عظمته عن حال العبد وذله وخضوعه وقابل تلك العظمة بهذا الذل والانحناء والخضوع قد تطامن وطأطأ رأسه وطوى ظهره وربه فوقه يرى خضزعه وذلة ويسمع ملامه فهو ركن تعظيم وإجلال كما قال صلى الله عليه وسلم " أما الركوع فعظموا فيه الرب ثم عاد الى حاله من القيام حامدا لربه مثنيا عليه بأكمل محامده وأجمعها وأعمها مثنيا عليه بأنه أهل الثناء والمجد معترفا بعبوديته شاهدا بتوحيده وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع وانه لا ينفع اصحاب الجدود والاموال والحظوظ جدودهم عنده ولو عظمت ثم يعود الى تكبيره ويخر له ساجدا على أشرف ما فيه وهو الوجه فيعفره فى التراب ذلا بين يديه ومسكنه وانكسارا وقد أخذ كل عضو من البدن حظه من هذا الخضوع حتى اطراف الانامل ورؤوس الاصابع وندب له ان يسجد معه ثيابه وشعره فلا يكفيه وان يكون بعضه محمولا على بعض وان يتأسر التراب بجبهته وينال قبل وجهة المصلى ويكون رأسه أسفل ما فيه تكميلا للخضوع والتذليل لمن له العز كله والعظمة كلها وهذا ايسر من حقه على عبده فلو دام كذلك من حين خلق الى ان يموت لما ادى حق ربه عليه ثم امر ان يسبح ربه الاعلى فيذكر علوه سبحانه فى حال سقوله هو وينزهه عن مثل هذه الحال وان من هو فوق كل شىء وعال على كل شىء ينزه عن السفول بكل معنى بل هو الاعلى بكل معنى من معانى العلو ولما كان هذا غاية ذل العبد وخضوعه وانكساره كان اقرب ما يكون الرب منه فى هذه الحال فأمر أن يجتهد فى الدعاء لقربه من القريب المجيب وقد قال تعالى ( واسجد واقترب ) وكأن الركوع كالمقدمة بين يدى السجود والتوطئة له فينتقل بركن مقصود فى نفسه يجتهد فيه بالحمد والثناء والتمجيد وجعل بين خضوع قبله وخضوع بعده وجعل خضوع السجود بعد الحمد والثناء والمجد كما جعل خضوع الركوع بعد ذلك فتأمل هذا الترتيب العجيب وهذا التنقل فى مراتب العبودية كيف ينتقل من مقام الثناء على الرب بأحسن أوصافه وأسمائه وأكمل إلى من له خضوعه وتذلله أن له هذا الثناء ويستصحب فى مقامه خضوعه بما يناسب ذلك المقام وليق به فيذكرعظمة الرب فى الحال خضوعه وعلوة فى حال سفوله ولما كان أشرف أذكار الصلاة القرآن شرع فى اشرف احوال الانسان وهى هيئة القيام التى قد انتصب غيها قائءما على احسن هيئة ولما كان افضل اركانها الفعلية السجود شرع فيها بوصف التكرار وجعل خاتمة الركعة وغايتها التى انتهت اليها مطابق افتتاح الركعة بالقرآن واختتامها بالسجود اول سورة افتتح بها الوحى فإنها بٌدئت بالقراءة وختمت بالسجود وشرع له بين هذين الخضوعين أن يجلس جلسة العبيد ويسأل ربه ان يغفر له ويرحمه ويرزقه ويهديه ويعاقبه وهذه الدعوات تجمع له خير دنياه وآخرته ثم شرع له تكرار هذه الركعة مرة بعد مرة كما شرع تكرار الاذكار والدعوات مرة بعد مرة ليستعد بالاول لتكميل ما بعده ويجبر بما بعده ما قبله وليشبع القلب من هذا الغذاء وليأخذ زاده ونصيبه وافرا من الدواء ليقومه فإن منزلة الصلاة من القلب منزلة الغذاء والدواء فإذا تناول الجائع الشديد الجوع من اللقمة او اللقمتين كان غناؤها عنه وسدها من جوعه يسيرا جدا وكذلك المرض الذى يحتاج الى قدر يغتى من الدواء اذا اخذ منه المريض قيركا من ذلك لم يزل مرضه بالكلية وأوال بحسبه فما حصل الغذاء او الشفاء للقلب بمثل الصلاة وهى لصحته ودوائه بمنزلة غذاء البدن ودوائه ثم لما اكمل صلاته شرع له ان يقعد العبد الذليل المسكين لسيده ويثنى عليه بأفضل التحيات ويسلم على من جاء بهذا الحظ الجزيل ومن نالته الامة على يديه ثم يسلم على نفسه وعلى سائر عباد الله المشاركين له فى هذه العبودية ثم يتشهد شهادة الحق ثم يعود فيصلى على من علم الامة هذا الخير ودلهم عليه ثم شرع له ان يسأل حوائجه ويدعو بما أحب مادام بين يدى ربخ مفبلا عليه فإذا قضى ذلك أذن له فى الخروج منها بالتسليم عل المشاركين له فى الصلاة**